إطلالة على تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين

يسري عبد الغني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية الإسلامية
خبير التراث الثقافي
القاهرة – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يسري عبد الغني عبد الله، إطلالة على تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين.- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع عشر؛ مارس ٢٠١٣. ص ١١١ – ١١٧.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

يحاول هذا المقال أن يلقي بعض الأضواء الكاشفة على تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين، وذلك بعد أن يؤكد على أن التاريخ نفسه يسبق مرحلة التدوين أو الكتابة التاريخية، إذ أنه قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض، وإن لم يصل علمنا إليه إلا من خلال الحفريات التي تكشف لنا كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان. والمعروف أن أقدم ما وصل إلينا من تواريخ هو ما سطره المصريون القدماء، والبابليون، والآشوريون، والعبرانيون، وهو يتضمن ذكر الكثير من الخوارق والخرافات، وبعد ذلك جاء الإغريق في القرن السادس عشر قبل الميلاد بتحرير العقل البشري من سلطان الخرافة، ويعرج المقال على علاقة العرب بالتاريخ في فترة ما قبل الإسلام، إلى أن جاء الإسلام واتجه أهل الكتابة والتدوين إلى معرفة سيرة الرسول محمد ﷺ وأحواله، وما صاحب ذلك من كتابة عن السيرة والنبوة والفتوحات والمغازي.

كما أوضح المقال الأسباب التي توافرت لجمع الأخبار وتدوينها، والطرق التي سلكها أهل التأريخ الإسلامي في عرض الحوادث، ثم التطور الملحوظ للكتابة التاريخية في القرن الثالث الهجري والأسباب التي أدت إلى هذا التطور، وأوضح المصادر التاريخية عند العرب في هذه الفترة، مع التعريف ببعض كتب التواريخ المحلية، ثم كان الوقوف أمام أمثلة تمثل تطور الكتابة التاريخية ورقيها، من خلال مؤرخين كان لهم دورهم الواضح والواعي في التأريخ والقفز به خطوات إلى الأمام، ومن هؤلاء: ابن خلدون، والمقريزي، والعسقلاني، والعيني، وابن تغري بردي، والصيرفي، وابن إياس.

مُقَدِّمَة: (عندما يسبق التاريخ مرحلة التدوين)

نعرف جميعًا أن علم التاريخ علم قديم يرجع إلى الوقت الذي ترك فيه الإنسان آثاره على الصخر، فالإنسان البدائي الذي عاش في الكهوف زين كهفه بتلك النقوش البدائية التي تصور حياته ليراها ويدرسها من يأتي بعده من بنيه أو عشيرته. وربما كانت تلك الصور التي حفظتها لنا كهوف الإنسان الأول هي أول ما دون الإنسان من تاريخه، وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن التدوين التاريخي يسبق بكثير اهتداء الإنسان إلى الكتابة، فقد عمل الإنسان الأول على أن يصور حياته ويسجلها في تلك الصور التي حفرها على جدران كهفه البدائي.

وعليه نستطيع القول؛ بأن التاريخ نفسه يسبق مرحلة التدوين التاريخي، إذ أنه قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض وإن لم يصل علمنا إليه إلا من ثنايا الحفريات التي تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على سطح الأرض، غير أن علمنا بالتاريخ لا يصل إلا عدة آلاف من السنين، وهو عمر قصير إذا قيس إلى عمر الحياة الإنسانية الطويلة.[1] ومن المعروف أن أقدم ما وصلنا من التواريخ ما كتبه المصريون القدماء والبابليون والآشوريون والعبرانيون، وهو يتضمن ذكر خوارق مثل

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ظهور مذنبات، ونتاج بقر ثنائي الرؤوس، وهي حكايات تبرز العناية الإلهية، كما نرى أقاصيص عن أبطال الشعوب القديمة.

وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد بدأ الإغريق يحررون العقل البشري من سلطان الخرافة فتلمسوا العلل لظواهر طبيعية نسبت إلى نزوات الآلهة وأهوائها، فقد تنبأ تاليس (طاليس) المالطي Thales of Miletus، وهو فيلسوف يوناني زار مصر الفرعونية وتعلم من كهنتها علم الهندسة، تنبأ هذا الرجل بكسوف الشمس سنة ٥٨٥ ق.م، وصحت نبوءته وكان ذلك إيذانًا بافتتاح عصر جديد في تاريخ تحرر العقل البشري.[٢]

وبعد ذلك جاء هيكتيوس المالطي، الذي ولد حوالي سنة ٥٤٦ ق. م، وفصل بين الحقيقة والأسطورة في تأريخه لنشأة الإغريق، ثم كان هيرودت الذي يلقب بأبي التاريخ الذي نشأ وترعرع في مدينة هليكرناسوس الواقعة في الجنوب الغربي من أسيا الصغرى حوالي (٤٨٤ ق. م . ٤٢٥ ق.م)، وقد جاب أقطار الشرق باحثًا في ماضيه متقصيًا أحواله، مدونًا لما وعى من تاريخه، فاستهواه النزاع بين الإغريق والفرس أو بين أوربا وأسيا أو بين الغرب والشرق، وكانت الصورة التي أبرزها هيرودت لهذا الصراع في كتابه الشهير (قصة النقائض والأضداد منذ الأزل).

وأتى بعد هيرودت المؤرخ تيوسيديد، حوالي (٤٧١ ق.م . ٤٠١ ق.م)، الذي أفرط في سرد أحداث السياسة والحرب في تأريخه لحرب البلوبونيز، وهي الحرب التي دارت رحاها بين أثينا واسبرطة، وقادته تلك النظرة إلى تمجيد الأفراد وإعلاء شأن البطولة، وهي نظرة سادت الدراسات التاريخية لزمن طويل، بل أثرت حتى عصرنا الراهن في كتابات الكثير من الكتاب والمفكرين الذين تناولوا بالبحث والدراسة القادة والأبطال والزعماء والأنبياء والرسل.

وما إن جاء القرن الثالث قبل الميلاد حتى ظهرت حوليات المؤرخ مانيثون المصري الذي عاش زمن بطليموس الأول وبطليموس الثاني، ووضع باليونانية تأريخًا لقدماء المصريين، استمده من مصادر مصرية قديمة. ونعرف تاريخ بابل لبيروسوس الذي عاش زمن أنطيوخوس الثاني، حوالي ٢٥٠ ق.م، وكتب باليونانية تاريخًا لبابل العراقية استمده من مصادر بابلية قديمة. ولسنا هنا في معرض الإسهاب عن مؤرخي الرومان مثل كاتو خطيب الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد، ويوليوس قيصر، وسالت، وليفي في القرن الأول قبل الميلاد، فهذا موضوع يحتاج إلى بحث مستقل، الذي يهمنا هنا أن نشير إلى أن الكتابات التاريخية تطورت منذ ذلك الحين في بلاد الغرب الأوربية.

علم التاريخ عند العرب

ويجب علينا هنا أن نتحدث عن نشأة علم التاريخ عند العرب، فنحن نعرف أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤقتون بالنجوم والأهلة، ويؤرخون بالحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة حتى خلافة الخليفة الثالث عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، الذي أمر الناس أن يؤرخوا من عام الهجرة، أي العام الذي هاجر فيه رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة.[٣]

أما عن التدوين التأريخي أو تدوين التاريخ ذاته فمن المعروف أن العرب في الجاهلية تذاكروا أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفهية في صورة أشعار وأخبار متفرقة، ضمتها إلى يومنا هذا بطون أمهات المراجع والمصادر الأدبية والتاريخية التي نعتمد عليها ونعود إليها حتى أيامنا هذه. ويقال إن: أهل اليمن قد نقشوا بالخط المسند أو المسماري على مبانيهم بعض أخبار ملوكهم التي وصلت إلينا، كما دون ملوك الحيرة العراقية بخطهم أخبار مملكتهم، وأودعوها أديرة الحيرة وكنائسها وعن هذا الطريق وصلت إلينا على مر الأعوام.

ولما جاء الإسلام وقامت الدولة العربية الإسلامية، وأصبحت هناك حاجة ماسة إلى معرفة سيرة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) وأحواله، توفر رجال على جمع أخبار السيرة النبوية وتدوينها فكان ذلك بدأ اشتغال العرب في الإسلام بالتأريخ. ويقال أن أول من كَتب في السيرة النبوة هو عروة بن الزبير بن العوام، المتوفى سنة ٦٣ هـ، وأبان بن عثمان بن عفان، المتوفى سنة ١٠٥ هـ، ووهب بن منبه، المتوفى سنة ١١٠ هـ، ومن أشهر من كتب في علم السيرة والمغازي: محمد بن إسحاق، المتوفى سنة ١٥٢ هـ، وقد اختصر سيرته ابن هشام، المتوفى سنة ٢١٨ هـ، في سيرته المشهورة التي شرحت بعد ذلك واختصرت أكثر من مرة، ثم محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، وكثير من رواية الواقدي احتواه كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ.

وفي تلك الأثناء امتدت أطراف الدولة الإسلامية، ووقعت الفتن العظمى وسادت العصبية القبلية، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الإسلامية، مثل: اليهودية والمسيحية والمجوسية والبوذية، من الديانات السماوية وغير السماوية، فتوافرت الأسباب لجمع الأخبار وتدوينها نتيجة عوامل متعددة منها:[٤]

- رغبة العلماء في فهم الإشارات التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، عن الأمم الغابرة.
- ميل بعض الخلفاء كمعاوية بن أبي سفيان الأموي، وأبي جعفر المنصور العباسي، إلى الوقوف على سياسة الملوك وأفكارهم وحيلهم ومكائدهم.
- حرص الموالي على الإشادة بمجد بلادهم القديم.
- كان تدوين الأنساب وأيام العرب ووقائعهم في الجاهلية والإسلام يسد حاجة الشعراء والأدباء في مقام الفخر والهجاء.
- حاجة الخلافة للأنساب وذلك لأهميتها في تقدير العطاء للجند.
- ومن البواعث القوية على تدوين أخبار الفتوحات الإسلامية رغبة ولاة الأمور لمعرفة ما فتح من البلاد صلحًا، وما فتح عنوة، وما فتح بعهد، لأن لكل من هذه الحالات حكمًا خاصًا من حيث الجزية والخراج.

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ولهذا كله وجد إلى جانب السيرة النبوية نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعها أخبار الماضيين وأحوال الجاهلية وحوادث الإسلام، وأطلق على كل ذلك لفظ الأخبار، وعلى المتخصص في روايته إخباري، كما عرف المتخصص في رواية الحديث النبوي بالمحدث. ويلاحظ الباحث في التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص أن النقلة من الحديث إلى الأخبار في بعض المؤلفات، مثل ابن إسحاق، والواقدي، والمدائني المتوفى سنة ٢٢٥ هـ، فلكل منهم كان محدثًا وإخباريًا، وكذلك يلاحظ بداية التخصص في الأخبار، ومن قبيل ذلك محمد بن السائب الكلبي (النساب الشهير) الذي اشتهر بدرايته بعلم الأنساب، وأبو مخنف الذي اهتم: بحروب الردة، وواقعة الجمل، وواقعة صفين، وأخبار الخوارج.

وفي تلك المرحلة وجد نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار، فكان لكل قطر من الأقطار الإسلامية المهمة إخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها، مثل: أبي مخنف الذي تخصص في أخبار العراق، والمدائني الذي تخصص في أخبار خراسان والهند، والواقدي الذي تخصص في أخبار الحجاز.[٥] ويهمنا في هذا المقام أن نذكر أن التاريخ بدأ عند المسلمين على أنه فرع من علم الحديث، فتأثر بطريقة وأسلوب المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها، فكان أهل السيرة النبوية والمغازي الإسلامية والإخباريون يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلية، وهذا المصدر قد يكون شخصًا عرف بالعدل، له علم مباشر واضح بالواقعة المروية، كأن يكون شاهدها بعينيه أو اشترك فيها، أو أخذها من كتاب قديم، أو حكاها له بعض أهل البادية أو أخذها من رواياتهم وأحاديثهم المتواترة أو المنقولة عنهم.

وكانت تلك الحال في رواية أخبار الأمم القديمة قبل مجيء الإسلام، فكان النقد عندهم أو ما يسمى في علم الحديث علم الجرح والتعديل ذاتيًا منصبًا على الرواة لا موضوعيًا منصبًا على المرويات، واتبعوا أيضًا طريقة علماء الحديث في تدارس كتب التاريخ وتلقيها أو أخذها عن مؤلفيها، بالسند المتصل قراءة وسماعًا وإجازةً، بل أكثر من ذلك جمعوا الروايات ورتبوها بحسب موضوعاتها في شكل رسائل أو كتب تشبه أبواب الحديث النبوي.

ويلاحظ أن المؤرخين المسلمين سلكوا في عرض الحوادث طريقتين:

أولاهما وأقدمهما: الترتيب على السنين بعد مقدمة في التاريخ القديم يبدؤونه عادة بذكر الطوفان على أيام نبي الله نوح (عليه السلام) أو بدء الخليقة، ويبدو . كما أعتقد . أن أول من اتبع هذه الطريقة مؤرخ يُدعى الهيثم بن عدي، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، ثم أتبعها من بعده: الطبري، ومسكويه، وابن الأثير، وأبوالفداء وغيرهم من المؤرخين المسلمين.

الطريقة الثانية: فتشمل سوق الحوادث مساق القصة المنسوبة المرتبة على العهود، وقد جرى على هذه الطريقة: اليعقوبي، والدينوري، والمسعودي صاحب مروج الذهب.

الكتابة التاريخية عند المسلمين في القرن الثالث الهجري

الكتابة التاريخية عند المسلمين تطورت تطورًا ملحوظًا منذ أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكان لذلك مجموعة من الأسباب نذكر منها الآتي:

- عندما زادت المادة التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية خاصةً دواوين: (الإنشاء، والجند، والخراج، والبريد).[٦]
- أمكن للمشتغلين بالتاريخ الانتفاع بما في هذه الدواوين من معلومات، فاحتوت كتابات تواريخ القرن الثالث الهجري على: عهود رسمية، ومراسلات سياسية، وإحصائيات للمواليد والوفيات، ومعلومات غزيرة عن كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات (الأقاليم الإسلامية).
- ما شاهده ذلك العصر من نشاط حركة الترجمة إلى العربية من الفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية.. وغيرها من اللغات التي كانت موجودة في تلك الفترة التاريخية.
- سهولة الانتقال في أرجاء الدولة الإسلامية دفعت الكثير من طلاب العلم ومحبيه والمؤرخين والكُتاب على الرحلة في طلب العلم والرواية ومشاهدة عجائب البلاد ورؤية آثارها.

ولهذا يمكننا القول بأن مصادر التاريخ عند العرب في القرن الثالث الهجري أربعة هي: (كُتب السيرة النبوية والأخبار/ السجلات الرسمية (الحكومية)/ المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية/ المشاهدة والمشافهة). وعندما كثرت المادة التاريخية اتجه كثير من العلماء وثقات الفقهاء لدراسة التأريخ والتأليف فيه، ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع على أنه من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأنًا، وارتفع شأن أهل التاريخ بين علماء الدولة الإسلامية بوجه عام. ومنذ القرن الثالث الهجري عندما أصبح علم التاريخ علمًا مستقلاً نجد اتجاهات معينة للمؤلفات التاريخية، فمنذ منتصف القرن الثالث الهجري أخذت الوحدة السياسية للدولة الإسلامية تتداعى، وانقسمت الدولة العباسية إلى دويلات متعددة في مشارق الأرض ومغاربها وأدى ذلك إلى ظهور ما يمكن أن نسميه بالتواريخ المحلية.

ومن كتب التواريخ المحلية على سبيل المثال لا الحصر:

- كتاب فتوح مصر والمغرب، لمؤلفه: عبد الرحمن بن عبد الحكم، المتوفى سنة (٢٥٧ هـ / ٨٧١ م).
- كتاب الولاة، وكتاب القضاة للكندي، المتوفى سنة (٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م).
- كتاب تاريخ بغداد وأعلامها، من تأليف: الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.
- كتاب: تاريخ دمشق، لمؤلفه: ابن عساكر، المتوفى ٥٧١ هـ.

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

- كتاب: البيان المُغرب في أخبار المغرب، لمؤلفه: ابن عذارى، وهو من علماء القرن السابع الهجري.

وقد ظلت سلسلة التواريخ العامة في اطراد فوجدنا:

- صنف مسكويه، كتابه: تجارب الأمم.
- كتب ابن الأثير، كتابه: الكامل في التاريخ.
- ألف أبو الفداء، كتابه: المختصر في أخبار البشر، الذي طبع في أربعة أجزاء في استانبول التركية، سنة ١٨٧٠م.

المسعودي وطريق لم يستكمل

ولأبي الحسن علي بن الحسين بن علي، المعروف لنا بالمسعودي المؤرخ، المتوفى سنة (٣٤٦ هـ/٩٥٦م)، أهمية خاصة تتضح لنا من خلال كتابيه: (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الذي طبع في أربعة أجزاء في القاهرة، سنة ١٩٣٨م، وكتاب: (التنبيه والأشراف)، فقبل المسعودي كان إذا اتفق لأحد من مؤرخي العرب أن يذكر بعض التفاصيل عن بلاد الصين، أو شبه القارة الهندية، أو بلاد الترك، أو بعض الأمم الأوربية، فإنه كان يستقي معظم أخباره ومعلوماته وتواريخه من مصادر ثانوية أو روايات زائفة وحكايات شعبية، يجانبها الواقع والمنطق في كثير من الأحيان، فيصبح تاريخه عن هذه الأمم: نسجًا من الأساطير والخرافات، وضربًا من التناقض الواضح، والأخطاء الزمنية.

ولم تكن المؤلفات الخاصة بالجغرافيا قبل المسعودي أحسن حالا من ذلك، إذ لا يكاد المؤلف الجغرافي يتجاوز حدود بلاد العرب وفارس وبعض الأقاليم المجاورة، حتى يدخل في ميدان الأساطير والخرافات المضحكة أحيانًا، والبعيدة غالبًا عن العقلانية والمنطقية. وعندما ظهر المسعودي، وكان صاحب عقل راجح متزن، يمتلك معارف عميقة واسعة، زار معظم بلاد الشرق الإسلامي وغير الإسلامي، واستطاع أن يمدنا بمعلومات صادقة وقيمة في آن واحد عن الجغرافيا والتاريخ، كما أمدنا بمعلومات قلما أن نجدها عند غيره في مجال التاريخ الطبيعي بجميع مجالاته وفروعه.

ولكن على الرغم من أن المسعودي جمع بين التوفيق في تحري الصدق، وموهبة الملاحظة الواعية، والحرص على تفنيد الأقوال الزائفة التي أتى بها سابقوه، غير أن الناس بعده . بكل أسف . استمروا في تداول الأخطاء الخاصة بتاريخ بلاد الهند والصين والترك، وكان على الكتابة التاريخية أن تنتظر ظهور مؤرخ أخر يحاول أن يستكمل مسيرة المسعودي.

الهمذاني يجمع تاريخ التتار

وبالفعل ظهر مؤرخ عظيم هو رشيد الدين فضل الله الهمذاني، المتوفى سنة (٧١٨ هـ/ ١٣١٨م)، صاحب كتاب: (جامع التواريخ). المجلد الأول من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، عنوانه : (تاريخ غازاني) وهو يتكلم عن تاريخ أقوام المغول وقبائلهم وملوكهم الذين حكموا إيران وغيرها. وفي الواقع أن غازان خان الحاكم المغولي عمل على توفير مواد البحث لرشيد الدين الذي استطاع لتمكنه من اللغة الماغولية أن يستفيد من قراءة المواد المقدمة له، واستخلص منها بنجاح تاريخ المغول.

أما المجلد الثاني من كتاب جامع التواريخ، فيمكن لنا أن نقسمه إلى قسمين: قسم يتناول تاريخ الفرس قبل مجيء الإسلام، ثم تاريخهم أيام الإسلام حتى سقوط بغداد العباسية، وقسم يتناول تاريخ الشعوب والأمم التي اتصل بها المغول في تاريخهم. والمجلد الثاني الذي كتبه رشيد الدين بناء على رغبة الخان/ أولجاتيو الذي أراد أن يكتب كتابًا عن تاريخ الأمم والشعوب التي اتصل بها المغول، ووفقًا لهذا التوجيه شرح رشيد الدين في كتابه ما أمر به الخان المغولي.

ورشيد الدين يقول لنا: إنه في تصنيفه لهذا الكتاب نقل عن العلماء الذين سبقوه، وعن الكتب التي وقعت في يديه، والعلماء كانوا كثيرين في بلاط أولجاتيو المغولي، كما أنه نقل عن أهالي وعلماء ورحالة الهند وكشمير والتبت وغيرهم من أقوام الترك والعرب والفرنجة، ومن العلماء الذين نقل عنهم فلاسفة وأهل تنجيم وأهل تأريخ للأديان وغيرهم.[٧] كل هؤلاء اتصل بهم رشيد الدين وأخذ منهم مادة كتابه، وبالنسبة للكتب التي اطلع عليها الهمذاني فقد كان كل عالم من العلماء الذين يعملون في بلاط الخان التتاري مزودًا بكتب تشتمل على تواريخ أمته وحكاياتها ومعتقداتها، وتؤكد لنا مراجعة كتاب الهمذاني أن الرجل أخذ من هذه الكتب ما رآه يتفق مع خطته في تأليف هذا الكتاب.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يعتبر في الحقيقة ثورة في الكتابة التاريخية عند المسلمين وبخاصةً ذلك القسم الخاص بالشعوب التي عرفها المغول، فقد بذل فيه رشيد الدين جهدًا كبيرًا مشكورًا، فهو يحدثنا أنه حين أراد كتابة تاريخ (الخُطا) استقدم عالمين صينيين هما: ليتاجي ويكسون، وكانا عالمين بالطب والفلك والتاريخ، وقد أخبرا رشيد الدين أن خير كتاب في تاريخ منطقة (الخطى) كتبه ثلاثة لامات متخصصون هم: فوهين من مدينة نان جان جيو، وفنجو من مدينة كن جيو، وشيخون من مدينة لاووكسين. وأكد العالمان الصينيان لرشيد الدين أن علماء المملكة راجعوا هذا الكتاب وشهدوا له جميعًا بالأصالة، فما كان من رشيد الدين إلا أن حصل على هذا الكتاب بعد جهد وتعب شديدين، ونقل عنه مادته العلمية في تاريخ (الخطا).

ويذكر شمس الدين الكاشاني في كتابه (تاريخ غازان خان) أن سفير قوبيلاي خان في بلاط غازان كان يجلس مع رشيد الدين جلوس الشيخ مع المريد، فكان هذا السفير يحكي ورشيد الدين يدون، ولعل هذا يعطينا فكرة عن المصادر التي اعتمد رشيد الدين عليها في تأليف كتابه. ولعل من أهم أقسام كتاب (جامع التواريخ) ذلك القسم الخاص بتاريخ الفرنجة، والذي جاء تحت عنوان: (في معرفة ولاية الفرنجة وبحارها وجزرها)، وهذا القسم يبحث في ولادة المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام)، وقصته، كما أنه أتى على

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ذكر الباباوات والقياصرة، إذ أنها أول محاولة جادة محايدة من مؤرخ مسلم يبحث في التاريخ الأوربي الوسيط.[٨]

ولكي نقف على منهج رشيد الدين في كتابه، نقرأ ما كتبه هو بنفسه حيث يقول عن عمله: "أستطيع أن أشهد لنفسي بأني لم أدخر أي احتياط أو جهد من تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف أو مشكوك فيه، وقد اقتبست، دون أي تغيير ما انطوت عليه أصدق الوثائق الخاصة بكل شعب، والروايات التي حازت أحسن التقدير، والمعلومات التي استقيتها من أعلم الرجال في كل قطر، وفتشت كتب المؤرخين ورجال الأنساب، وحققت هجاء اسم كل أمة وكل قبيلة، ثم رتبت المواد التي جمعتها على نظام منهجي لم يتبعه أحد قبلي، ومن شأنه أن ييسر تناوله على جميع قُرائه".

ابن خلدون مؤرخًا

ونقلب معًا في سجل تاريخ التأريخ لنجد مؤرخاً آخر لا يقل عن رشيد الدين أهمية بل يتفوق عليه، ونقصد به العالم والمفكر عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م)، إذ أنه كتب تاريخه الأصيل بعد أن تنقل في أرجاء المعمورة الإسلامية في الأندلس والمغرب، وخدم في دواوين الحكام والأمراء، كما أرسله سلطان غرناطة الأندلسية محمد الخامس في سفارة إلى بترو ملك قشتاله. لهذا شاهد ابن خلدون أحوال الكثير من الدول وخاصةً عوامل التدهور التي بدأ العالم الإسلامي يعانيه، وبالتالي أصبح لكتاب ابن خلدون وبخاصة المقدمة الشهيرة أهمية كبيرة وقيمة تاريخية فريدة.[٩]

يضاف إلى ذلك؛ أن ابن خلدون عاش في وقت بدأ العالم الإسلامي يفهم فيه مدلول مفهوم علم التاريخ، لذلك عرف ابن خلدون علم التاريخ تعريفًا مهمًا يجب الالتفات إليه، وذلك عندما قال: "في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى.. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق..". وهكذا أشار ابن خلدون إلى العلل والكيفيات والأسباب والنتائج مما يدل على فهمه التام للتأريخ ووعيه به. كما يشير ابن خلدون إلى المؤهلات والصفات التي يجب على الباحث التاريخي أن يتصف بها، إذ يقول إنه: محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، ومحتاج إلى حُسن نظر، وتثبت، يفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن الزلات والمغالط. ويؤكد ابن خلدون على أن الأخبار إذا اعتمد فيها المؤرخ على مجرد النقل، ولم يحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالزاهد، فربما لم يأمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق و الصواب.

ومن المعروف لنا أن ابن خلدون قدم إلى مصر سنة ١٣٨٢م، وحاضر في رحاب الجامع الأزهر الشريف، وتعلم على يديه الكثير من طلاب العلم ومحبيه، كما أنه عمل مدرسًا بالمدرسة القمحية، وتولى منصب قاضي قضاة المذهب المالكي في مصر، واتصل بكثير من العلماء والمؤرخين المعاصرين له في مصر والشام. وقد أدت اتصالاته بعلماء مصر والشام ومؤرخيهما إلى تكوين مدرسة كبيرة للدراسات التاريخية في مصر، نبغ فيها العديد من المؤرخين المشهود لهم بالثقة والأمانة، والمنهجية الصحيحة.

المقريزي والخطط

كان أول تلاميذ تلك المدرسة الخلدونية أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة (٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، والذي كتب كتابًا ضخمًا عن تاريخ مدينة القاهرة سماه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، وهو كتاب اعتنى فيه المقريزي بدراسة الخطط، وكتب في أول هذا الكتاب مقدمة جغرافية تاريخية، كما أنه تناول المدن والآثار المصرية، وعني عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة. ثم كتب المقريزي سلسلة من الكتب التاريخية تقصى فيها تاريخ مصر منذ فجر الإسلام، فكتب كتابًا سماه (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط)، وهو تاريخ لمصر في عصر الولاة، بعد ذلك كتب كتابًا عن تاريخ الدولة الفاطمية في مصر سماه (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا)، أما كتابه عن تاريخ الأيوبيين والمماليك فقد سماه (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك).

غير أن أهمية كتابات المقريزي التاريخية تصل ذروتها فيما قام به من دراسات في التاريخ الاقتصادي مما جعله بحق أشهر مؤرخ في هذا المضمار، فكتب المقريزي كتاب (الأوزان والأكيال الشرعية)، وكتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة)، وهو الكتاب الذي تناول فيه المقريزي تاريخ المجاعات والأوبئة التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور حتى سنة ١٤٠٥م. وقد أعطى المقريزي سببًا مهمًا من أسباب هذه المجاعات والطواعين والغلاء الفاحش والمعاناة الاقتصادية التي عانى منها الشعب المصري، وهو: "سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد"، وهذا في رأينا منهج جديد، وتفسير اقتصادي للتاريخ تعلمه المقريزي من أستاذه ابن خلدون الذي اتصل به وكانت بينهما صداقة حميمة.

بعض مؤرخي هذا العصر

وشاهد ذلك العصر أيضًا المؤرخ أحمد بن علي المعروف لنا باسم ابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة (٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨م)، صاحب كتاب (أنباء الغمر في أبناء العمر)، الذي يعتبر أهم المراجع الأصلية لعصره، لما احتواه من معلومات مهمة لحوادث الدولة وسياستها العامة. وكذلك عاش في ذلك العصر المؤرخ محمود بن أحمد العيني، المتوفى سنة (٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م)، صاحب كتاب (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان)، وهو من أعظم الكتب الذي كتبها العيني. وفي القرن الخامس عشر أيضًا عاش المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، المتوفى سنة (٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠م)، صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، ويجمع الباحثون على أن هذا الكتاب من أحسن مصادر تاريخ مصر في العصور الوسيطة بوجه عام.[١٠]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ولأبي المحاسن كتاب آخر عنوانه: (حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور)، وهو ذيل لكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك)، لأستاذة المقريزي، ورتبه أبو المحاسن على السنين والشهور والأيام كترتيب كتاب السلوك، وبدأ به من حيث انتهى المقريزي، غير أن أبا المحاسن خالف شيخه المقريزي، فأطال في كل من الحوادث وتراجم الوفيات. وتتلمذ ابن الصيرفي، المتوفى سنة ٩٠٠ هـ على يد ابن حجر العسقلاني، وكتب ابن الصيرفي كتاب (نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان)، وافتتحه بسلطنة السلطان المملوكي برقوق سنة ١٣٨١م، واختتمه سنة ١٤٤٦م.

ولابن الصيرفي كتاب آخر عنوانه: (إنباء البصر بأبناء العصر)، والذي لم يصلنا إلينا منه سوى الجزء التاسع الذي تفضل بنشره أستاذنا الدكتور حسن حبشي، في القاهرة سنة ١٩٧٠م. أما أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المتوفى سنة (٩٠١ هـ/ ١٤٩٧م)، صاحب كتاب (التبر المسبوك في ذيل السلوك)، والذي طبع في القاهرة لأول مرة سنة ١٨٩٦م، وهو تكملة لتاريخ المقريزي المسمى (السلوك لمعرفة دول الملوك).[١١] وللسخاوي كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)، وهو في قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين، ويحتوي الكتاب على صفحات كثيرة ومهمة يجب الالتفات إليها في تأريخ التاريخ، وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول.

وإلى ذلك العصر ينتمي أيضًا المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس، المتوفى سنة (٩٣٠ هـ/١٥٢٤م)، وقد صنف ابن إياس كتابًا قيمًا في التاريخ عنوانه (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، وهو كتاب يبحث في تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العصر العثماني. ولابن إياس أيضًا كتاب عنوانه: (نشق الأزهار في عجائب الأقطار)، وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية وملوكها، إلا أن كتاب (بدائع الزهور)، يعتبر المرجع الرئيسي لحوادث فتح العثمانيين لمصر، وفي هذا الكتاب لم يقتنع ابن إياس بمجرد سرد الحوادث والوقائع والوفيات، بل كان بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف مع شيء من القسوة في الحكم والجرأة في التقدير.[١٢]

وقبل أن نختتم نحب أن نقول إنه: في أيامنا الحاضرة اتجاه روائي وقصصي يحاول الاستفادة من التراث التاريخي بعمل إسقاطات على عصرنا الراهن بكل قضاياه وأزماته ومشاكله، وبالذات تراث العصر المملوكي، وبالطبع لا ضرر ولا ضرار في ذلك، ولكن نجد أن أصحاب هذا الاتجاه يقعون في منزلق خطير لا يصح ولا يليق بأهل الإبداع والكلمة البناءة، فهم يقومون بنقل صفحات كاملة من كتب التراث التاريخي دون أدنى إشارة إلى مصدر هذه الصفحات، ولعل أكثر الكتب التراثية التي أخذ منها كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لابن إياس، فقد رأينا أن بعض الكتاب ينقل من هذا الكتاب في فصل واحد من روايته أكثر من تسع صفحات كاملة نقلاً حرفيًا، دون أن يكلف نفسه مئونة أن يكتب هامشًا واحدًا يقول لنا فيه أن هذا الكلام الذي أورده هو كلام ابن إياس، أو المقريزي، أو ابن تغري بردي، أو حتى السيوطي، فمن حق الناس أن يعرفوا ويفهموا، ومن حق من نأخذ منهم أن نعطيهم حقهم، ولا يقلل ذلك من شأن المبدع أو الكاتب.

ولنعلم جميعًا أن التراث ملك لنا جميعًا، ومن حقنا أن نوظفه كما نشاء، ونأخذ منه كما نشاء، من أجل إفادة القارئ فكريًا ومعنويًا، ولكن علينا من منطلق الأمانة مع النفس ومع العلم أن نذكر مصدر الكلام الذي أخذناه أو نقلناه من صفحات التاريخ.

خاتمة

كانت هذه كتابات بعض مشاهير مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي، والملاحظ لنا أن كلا منهم كان يفتتح كتابه بعد البسملة، والحمد لله، والصلوات والطيبات، بذكر بدء الخليقة، ويعقبه بقصص الأنبياء والمرسلين (سلام الله عليهم أجمعين)، ثم يأخذ في شرح فضائل مصر وما امتازت به من الصفات على سائر البلدان، وينتقل بعد ذلك إلى تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي فيكون مختصرًا أولاً، ثم أقل اختصارًا، وهكذا إلى أن يصبح الكتاب سجلاً يوميًا لما يقع بمصر وولاياتها وحاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى في عصر المؤلف.

وقد يتخلل هذا السجل اليومي شيء عن أسعار المحاصيل الزراعية أو السلع الغذائية، أو فيضان النيل، أو تفصيلات جدل أدبي، أو أدوار محنة فقهية، أو تعديل في نظم الحكم والجيش، أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة ورد السلطان عليها، وذلك فضلاً عن الوفيات والتراجم التي تطول أو تقصر نظرًا لعوامل كثيرة. وهكذا؛ وصلت الكتابة التاريخية في مصر أواخر عصر سلاطين المماليك إلى درجة كبيرة من النضج والتقدم، ومهما قيل في قصور طريقة مؤرخي تلك الفترة من الناحية العلمية أو المنهجية، فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة ونفيسة، مازلنا حتى يومنا هذا في حاجة ماسة إلى تحقيقها ونشرها وإخراجها بشكل علمي منهجي سليم من بطون المخطوطات إلى عالم الكتب المطبوعة حتى يستفيد منها القراء والأجيال القادمة.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) علي أدهم، **بعض مؤرخي الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٤.

(٢) أحمد رمضان أحمد، **تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧٤.

(٣) محمد أحمد أنيس، **مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني**، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٩٩.

(٤) هرتشو، **علم التاريخ**، ترجمة وتعليق/ عبد الحميد العبادي، القاهرة، ١٩٣٧، المقدمة التي كتبها المترجم.

(٥) محمد عبد الفتاح عنيان وآخرون، **الدولة العربية الإسلامية وحضارتها**، وزارة التربية والتعليم المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٥٦.

(٦) سيد أحمد علي الناصري وحسين محمد ربيع، **علم التاريخ**، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٤.

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، **المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية**، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢، ص ٧١.

(٨) يسري عبد الغني عبد الله، **المدنية العربية الإسلامية: نظرات في الأصول والتطور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٨٧ . ٨٨.

(٩) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق/ علي عبد الواحد وافي، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٠ ــ ١٤، وكذلك: مصطفى يسري عبد الغني، **ابن خلدون مصنفًا للعلوم والمعارف**، جامعة النجاح، غزة، فلسطين، ٢٠١٢، ص ٧ . ٩.

(١٠) يسري عبد الغني عبد الله، **ابن تغري بردي، مؤرخ يكتب عن نجوم مصر الزاهرة**، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٣٣.

(١١) يسري عبد الغني عبد الله، **معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١، ص ٨٨.

(١٢) يسري عبد الغني عبد الله، **مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٢٧.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449